مجلة آفاق لعلم الاجتماع
ISSN : 1112-8259 EISSN :2600-6855
العدد 16 / ديسمبر 2018
تاريخ الإرسال:26 /2018/08 تاريخ القبول:17 /2018/11 تاريخ النشر:30/12/ 2018

إسهامات علي الوردي في صياغة نظرية اجتماعية عربية

Contribution Ali Al-Wardi in the formulation of the Arab Social Theory

د. ترايكية يامنة
الأكاديمية العسكرية هواري بومدين، شرشال، الجزائر

الملخص:

لقد تناولنا من خلال هذه الدراسة مفكر يعد من أهم علماء الاجتماع العرب، حيث استطاع الوردي من خلال أسلوبه المميز والساخر الوصول إلى كافة فئات المجتمع بمختلف مستوياتهم العلمية، واستطاع التأثير في قرائه وتحفيزهم حتى للرد عليه، حيث نجد لكل مؤلف من مؤلفات الوردي الكثير من الكتب والأقلام سالت للرد عليه، حيث سعى علي الوردي من خلال هذه المؤلفات الكثيرة إلى محاولة صياغة وتأسيس علم اجتماع عربي يكون تكملة لعلم الاجتماع الخلدوني، الذي يعكس الهوية والخصوصية الاجتماعية العربية بحسب رأيه، وقد واجه الوردي الكثير من الانتقادات بالنظر للواقعية الكبيرة التي تناول بها تحليل مختلف المشكلات الاجتماعية الشائكة والحساسة التي تعتبر طابو في الوطن العربي، وهو ما أردنا إبرازه في هذه الدراسة من خلال التعريف بعلي الوردي، وإبراز أفكاره الاجتماعية، منهجه، دوره في نشوء علم اجتماع عربي، وصولا إلى تناول مجموعة من الانتقادات التي طالته ورده على هذه الانتقادات.

الكلمات الدالة: إسهامات، علي الوردي، نظرية، علم اجتماع، علم اجتماع عربي.

Abstract

We have dealt with through this study a thinker is one of the most important Arab sociologists, where EL WARDI through his distinctive and cynical was able to reach all segments of society at different levels of science, and was able to influence the readers and motivate them to even respond to it, where each author of EL WARDI works a lot of The books and pens sought to answer him. In

these works, Ali Al-Wardi sought to formulate and establish an Arab sociology that would complement the Khaldouni sociology, which reflects Arab social identity and privacy. Which is a taboo in the Arab world, which we wanted to highlight in this study by introducing Ali Al-Wardi, highlighting his social ideas, his method, his role in the emergence of Arab sociology, and reaching a series of criticisms His response to these criticisms.

Keywords: Contributions; Ali Al-Wardi; Theory; Sociology; Arab sociology.

مقدمة:

إن الجهود المبذولة لإنشاء علم اجتماع عربي تتطلب توفر مجموعة من المقومات والشروط، فالخصوصية الثقافية والاجتماعية والتاريخية للمجتمع العربي تعتبر من أهم المبادئ التي يجب الوقوف عندها واحترامها قبل البدء في وضع أسس هذا العلم، فلكل مجتمع خصوصيته التي تميزه عن باقي المجتمعات، حيث لا يمكن الاعتماد على علماء اجتماع غربيين في صياغة نظرية اجتماعية عربية وذلك لعدم معرفتهم الدقيقة بواقع المجتمعات العربية، ومن هنا و لكي تكون الدراسات الاجتماعية علمية وأصيلة يجب أن تنبع من علماء اجتماع عرب عايشوا مختلف الظروف الاجتماعية والتاريخية التي مر بها الوطن العربي ليكون وصفهم ودراستهم العلمية ونظرياتهم أكثر عمقا وواقعية ودقة وأصالة.

ويعتبر علي الوردي أحد أبرز علماء الاجتماع العرب، فهو بمثابة الشاهد على حقبة زمنية مهمة في تاريخ المجتمعات العربية، حيث حاول الوردي التركيز على دراسة المشكلات الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع العربي بأسلوب نقدي وثوري يميل إلى السخرية في بعض الأحيان مما جعله شديد التأثير في قرائه لسهولة أسلوبه وواقعية معالجته للمشكلات التي يعاني منها المجتمع العربي، حيث يعتبر علي الوردي من أبرز الباحثين في علم الاجتماع الديني، نظرا لما يحتله الدين من مكانة هامة في حياة المجتمعات العربية، حيث تناول ظاهرة التدين عند المسلمين بأسلوب تاريخي نقدي حاول من خلاله دراسة التاريخ الإسلامي دراسة موضوعية بعيدة عن القداسة وهي الآفة التي أصابت الكثير من العلماء في ذلك الوقت، حيث استطاع من خلال هذا الأسلوب التأثير في الكثير من علماء الاجتماع ولعل أبرزهم وأشهرهم علي شريعتي الذي يظهر ملامح تأثره بالوردي من خلال كتابه التشيع العلوي والتشيع الصفوي، ومن خلال ما سبق وللمكانة المهمة التي

يحتلها الوردي كأحد أبرز علماء الاجتماع المعاصرين الذين حاولوا التأسيس لعلم الاجتماع عربي وصياغة نظرية اجتماعية عربية.

سنحاول من خلال هذه المداخلة التعرف أكثر على **علي الوردي**، من هو؟ ما هي أهم مؤلفاته؟ ما هو منهجه؟ ما هي فلسفته الاجتماعية؟ ما مميزات فكره؟ ما هي أهم إسهاماته في التأسيس لعلم اجتماع عربي؟ وصولا في الأخير إلى التعرف على جملة من الانتقادات التي وجهت إليه.

1- أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى:

ـ التعريف بعالم الاجتماع العراقي علي الوردي من خلال إعطاء لمحة عن حياته، الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي نشأ فيها، والتي ساهمت بشكل كبير في تكوين شخصيته العلمية، وفكره الاجتماعي.

ـ التعرف على منهج علي الوردي، وأسلوبه في الكتابة الذي ميزه عن باقي علماء عصره، والذي مكنه من التأثير على مختلف شرائح المجتمع سواء المثقفة أو عامة الشعب.

ـ التعرف على مميزات الفكر الاجتماعي عند علي الوردي وأهم إسهاماته في بناء علم اجتماع عربي، من خلال دراسته للمجتمعات الإسلامية وتاريخها بأسلوب واقعي وموضوعي وحديث بعيد كل البعد عن القداسة والمثالية.

ـ التعرف على أهم الانتقادات التي طالت فكر علي الوردي الاجتماعي، ومنهجه، وكيف كان رد علي الوردي على هذه الانتقادات.

2- أهمية الدراسة

تكمن أهمية هذه الدراسة في أهمية الشخصية التي نحن بصدد دراستها، حيث يعتبر علي الوردي أحد أبرز علماء الاجتماع العراقيين والعرب، الذي كان له أثر كبير في محاولة صياغة نظرية اجتماعية نابعة من واقع المجتمعات الإسلامية، حيث عايش الوردي حقبات مهمة من التاريخ العربي الإسلامي، مكنه ذلك من محاولة فهم ودراسة وتحليل تاريخ الحضارة الإسلامية في ضوء ما يحدث في الواقع ، بأسلوب أقل ما يقال عنه أنه سهل ممتنع، استطاع ببساطته وسلاسته اللغوية، وفكره النقدي والثوري، وعاطفته القوية أن يؤثر في الكثير من قرائه بمختلف مستوياتهم

العلمية، وهو الأمر الذي يعبر عن ذكاء علي الوردي الاجتماعي واطلاعه على خصوصية المجتمع الذي يعيش فيه، فكان يكتب للإنسان العربي ككل البسيط والمثقف بالأسلوب وباللغة التي يستطيع أن يفهمها، وهو الأمر الذي أخفق فيه الكثير من مفكري عصره الأمر الذي جعل أفكارهم لا تصل إلى الشريحة الأكبر من مكونات المجتمع لصعوبة اللغة من جهة وصعوبة الأفكار من جهة أخرى.

3- من هو علي الوردي

ولد علي حسين الوردي في مدينة الكاظمية في ضواحي بغداد عام 1913، تحديدا لأسرة علمية معروفة تدعى بيت أبي الورد نسبة إلى عمل أسلافها في تقطير ماء الورد، وقد درس في مدارس مدينة الكاظمية، ولتفوقه في الدراسة الثانوية أرسلته الحكومة العراقية للدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت حيث تخرج منها ثم عاد إلى العراق وعمل في التدريس لمدة ثلاث سنوات ثم أرسل إلى جامعة تكساس في الولايات المتحدة الأمريكية لينال منها شهادة الماجستير بعنوان دراسة في سوسيولوجيا الإسلام ثم حصل على شهادة الدكتوراه بعنوان نظرية المعرفة عند ابن خلدون، ويعد علي الوردي الرائد الأول في تأسيس علم الاجتماع في الوطن العربي كعلم منفصل عن باقي العلوم الإنسانية وقد استمر في التدريس إلى غاية سنة 1969، أحيل بعدها للتقاعد بناءا على طلبه ليتفرغ للكتابة والبحث. (علي الوردي، 2013: 10، 11)

1-3 ـ شخصيته العلمية

كان لنشأة علي الوردي العصامية والدينية الثقافية وكذا حالة عائلته الفقيرة والمثقفة و تجاربه في أزقة الكاظمية وأسواقها ومجالسها الأدبية ونواديها الاجتماعية و وتراثها السياسي والديني دور لا يستهان به في تكوين شخصيته وثقافته، كما كان لكفاحه وصبره واجتهاده تأثيرا لا يستهان به في جعله مفكرا اجتماعيا وكاتبا ساخرا وناقدا اجتماعيا، كان الوردي منذ صغره مولعا بالكتب والمجلات، كما أنه كان دؤوبا على زيارة السجون والمحاكم وحضور المناسبات الدينية في الجوامع ومجالس العزاء الحسيني ومجالسة الكبار والاستماع إلى أحاديثهم وذكرياتهم كل ذلك ساهم في تكوينه الفكري والاجتماعي وكذلك في تشكيل شخصيته العلمية ونزعته الشعبية الساخرة. (إبراهيم الحيدري، 2006 : 38، 39).

2-3 ـ سبب دراسته علم الاجتماع

عندما سؤل علي الوردي عن سببه دراسته علم الاجتماع بدل أي تخصص أخر خاصة وأن ميوله كانت أدبية فأجاب :« لأن هذا العلم يلائم ذوقي ومزاجي، فقد مررت في طفولتي وبداية شبابي بتجارب عانيت فيها ورأيت البشر على حقيقتهم دون قناع فنشأت عندي رغبة في أن اعرف عن طبيعة البشر شيئا ولماذا يسلك إنسان هذا المسلك ويسلك غيره مسكا أخر ». (حميد المطبعي، 2010: 40)

3-3- مؤلفاته

كتب الوردي ثمانية عشر كتابا ومئات البحوث والمقالات، أربع كتب منها قبل ثورة 14 تموز 1958 وكانت ذات أسلوب أدبي - نقدي ومضامين تنويرية جديدة وساخرة لم يألفها القارئ العراقي ولذلك واجهت أفكاره وآراءه الاجتماعية الجريئة انتقادات لاذعة وبخاصة كتابه «وعاظ السلاطين » الذين يعتمدون على منطق الوعظ والإرشاد الأفلاطوني منطلقا من أن الطبيعة البشرية لا يمكن إصلاحها بالوعظ وحده، وان الوعاظ أنفسهم لا يتبعون النصائح التي ينادون بها وهم يعيشون على موائد المترفين، كما أكد بأنه ينتقد وعاظ الدين وليس الدين نفسه، أما الكتب التي صدرت بعد ثورة 14 تموز فقد اتسمت بطابع علمي ومثلت مشروع الوردي لوضع نظرية اجتماعية حول طبيعة المجتمع العراقي وفي مقدمتها كتابه دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ومنطق ابن خلدون ولمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث الذي صدر في ثمانية أجزاء.

لقد تنبأ الوردي بانفجار الوضع مثلما تنبه إلى جذور العصبيات التي تتحكم بشخصية الفرد العراقي التي هي واقع مجتمعي تمتد جذوره إلى القيم والأعراف الاجتماعية والعصبيات الطائفية والعشائرية والحزبية التي ما زالت بقاياها كامنة في نفوسنا، وكذلك إلى الاستبداد السلطوي، الزمني، الذي شجع وما يزال يشجع على إعادة إنتاج الرواسب الاجتماعية والثقافية التقليدية القديمة وترسيخها من جديد، كما يحدث اليوم.

ـ مهزلة العقل البشري.

ـ وعاظ السلاطين.

ـ خوارق اللاشعور (أو أسرار الشخصية الناجحة).

ـ هكذا قتلوا قرة العين.

ـ لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (8 أجزاء).

ـ الأحلام بين العلم والعقيدة.

ـ منطق ابن خلدون.

ـ قصة الأشراف و ابن سعود.

ـ أسطورة الأدب الرفيع.

ـ شخصية الفرد العراقي، بحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع الحديث.

ـ أكثر من 150 بحثا مودعة في مكتبة قسم علم الاجتماع في كلية الآداب جامعة بغداد.

لم يثير كاتب أو مفكر عراقي مثلما أثاره علي الوردي من أفكار نقدية جريئة، وكان من البديهي أن يتعرض للنقد والتجريح والهجوم من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار(حيث صدرت حول أفكاره خمسة عشرة كتابا ومئات المقالات)، حتى انطبق عليه المثل العراقي المعروف «مثل السمك مأكول مذموم ».

والحقيقة كان على الوردي أول عالم اجتماع عراقي درس شخصية الفرد العراقي وطبيعة المجتمع العراقي بجرأة وصراحة وحلل الظواهر الاجتماعية الخفية والسلوكات الفردية والجمعية ووجه الاهتمام إلى دراستها وتحليلها ونقدها، وهو بهذا دفعنا إلى إعادة النظر في خطابنا الفكري والاجتماعي والسياسي والى ضرورة أن ننزل من أبراجنا العاجية وان نعي واقعنا بكل ايجابياته وسلبياته. (https://fakkerfree.wordpress.com، يوم : 2016/07/19، سا: 12:00.)

4- فلسفة علي الوردي الاجتماعية:

تناول الوردي مجموعة من المفاهيم في دراساته الاجتماعية سنتطرق في هذا العنصر إلى البعض منها: (إبراهيم الحيدري،2006 : 165 – 173).

4-1 ـ الطبيعة البشرية

كان هدف الوردي من دراسة الطبيعة البشرية هو الإجابة عن هذا السؤال : هل الإنسان مسير أو مخير في حياته؟.

يرى الوردي أن الطبيعة البشرية عصية عن البحث العلمي لأنها تخضع في جوانب عديدة لقوانين تشبه قوانين الطبيعة والتي من الممكن تسميتها نواميس بشرية، مع ذلك فإنها تختلف عن النواميس

الطبيعية لأن الأخيرة تسير بوتيرة لا شذوذ فيها، أما نواميس البشر فإنها تختلف بدرجات متفاوتة بين هذا الإنسان وذاك.

حيث يضرب الوردي مثلا باينشتاين، حيث يقول لو كان هذا العلم الكبير ابن بيئة عربية مثلا وهو كما كان معروف كان طفل يعاني من التوحد وصعوبة في النطق، لما أصبح العالم الكبير الذي هو اليوم وبالتالي البيئة الاجتماعية للإنسان تلعب دور في التأثير على أفكاره ومصيره وأهدافه ودرجة تحقيقها.

2-4 ـ الشخصية

يرى الوردي أن الشخصية هي حصيلة تفاعل بين مجموعتين من العوامل هما الوراثة والمحيط فالفرد يحمل صفات معينة يرثها من أبويه كالشكل والأجهزة العصبية والهرمونات وبعض الكفاءات والمهارات كما تؤثر البيئة التي ينشا فيها الفرد كالبيت والأقران والمهنة ومن هذه العوامل مجتمعة تتكون شخصية الفرد وتنمو بالتدرج.

ويشير الوردي إلى أن هذه العوامل يختلف تأثيرها من شخص إلى آخر ولذلك ليس للناس يد في صنع شخصياتهم إلا ضمن حدود معينة وأن أكثر الناس الفاشلين أو الناجحين في الحياة ليسوا مسؤولين عن فشلهم أو نجاحهم فالظروف التي يمر بها الفرد ومختلف القدرات والملكات التي ورثها عن أهله تلعب دور في تحديد شخصيته في المستقبل.

3-4 ـ العقل البشري

يعتقد الوردي أن العقل البشري متحيز بطبيعته، وأن هناك الكثير من العوامل التي تؤثر على تفكيره وفي مقدمتها العادات والتقاليد والقيم التي نشأ عليها الإنسان وكذلك المصالح والذكاء ودرجة التعلم، فالإنسان يتصور بأنه حر بتفكيره، فالعقل البشري بحسب الوردي مغلف بغلاف سميك لا تنفذ إليه الأدلة والبراهين العقلية إلا من خلال نطاق ضيق ومحدود وهذا النطاق مؤلف من البيئة التي نشأ عليها الشخص وقد أطلق الوردي على هذا الغلاف اسم الإطار الفكري الذي يجعل بعض الناس يتصورون أنهم أحرار وفي الحقيقة هم مقيدين لاشعوريا من حيث لا يشعرون، ويشبه الوردي القيود اللاشعورية بالضغط الجوي حيث لا نشعر بضغطه الهائل إلا عندما نغادر كوكبنا هذا، كذلك العقل البشري لا يشعر بالقيود المفروضة عليه إلا إذا انتقل إلى بلد أخر أو مجتمع أخر وثقافة أخرى، فعند ملاحظتها لوجود فكر آخر وثقافة أخرى يبدأ العقل البشري بالانفتاح وكلما كان العقل البشري أكثر ضيقا كلما زاد العصبية لديه والعكس صحيح، من جهة

أخرى يرى الوردي أن العقل البشري لا يصل أن يكون حكما في الكثير من المنازعات بين الطرفين، وذلك بسبب عدم حياديته فكل طرف يضن بأن الحق معه حين يحتكم إلى عقله، لذا فإن النزاع بين أي طرفين يحتاج إلى طرف ثالث لحله وهما إما أن يقبلان بحله أو يجبرهما بالقوة.

5- منهج علي الوردي

طرحت تساؤلات كثيرة عن المنهج الذي استخدمه الوردي في دراساته وأبحاثه الاجتماعية، حيث يرى البعض أن الوردي ليس سوى مجرد مؤرخ وليس بعالم اجتماع، وأن أغلب ما كتبه يقع في دائرة التاريخ وليس المجتمع.

«إن القراءة الجادة لكتب علي الوردي تبين لنا بوضوح بأنه ليس مؤرخا وأنه يعتمد فقط على ما يكتبه المؤرخين » (علي الوردي،1969: 40) حيث أنه لا يهتم بالتاريخ من أجل التاريخ وإنما لدراسته وتفكيك أحداثه وفهم تأثيره على تشكيل البنى الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ومعرفة سمات وخصائص شخصية الفرد العراقي التي نمت وتبلورت في إطارها، وهو الأمر الذي جعله يقرأ تاريخ الدولة العثمانية الذي زخر بأحداث وصراعات وتناقضات غير قليلة كان لها تأثير عميق وواضح على طبيعة المجتمع العراقي وإعادة إنتاج كثير من القيم البدوية السلبية التي نشأ الفرد العراقي في إطارها وتكونت ذهنيته بموجبها، وقد ذكر الوردي بأنه ليس مؤرخا وإنما يعتمد فيما يكتبه على المؤرخين.

ومن الناحية السوسيولوجية فإن للظواهر الاجتماعية امتداد تاريخي مثلما لها امتداد اجتماعي انثروبولوجي وهو ما يظهر في دراسات الوردي وطريقة بحثه وتحليله للظواهر الاجتماعية وتأويله لتأثيرها على المجتمع العراقي، وتشكيل شخصية الفرد فيه.

يقول الوردي :« الواقع أن الباحث الاجتماعي الذي يتجول في صفحات التاريخ قد يستمد منها دروسا لا تقل أهمية عن تلك التي يستمدها من التجول في المجتمع، بعبارة أخرى، أن تجول الباحث في الزمان لا يقل نفعا عن تجوله في المكان، فكلاهما يمده بالمعلومات الضرورية لفهم المجتمع البشري وطبيعة الإنسان. » (إبراهيم الحيدري، 2006 : 65 – 67)

6- مميزات فكر علي الوردي

يتميز فكر علي الوردي بما يلي:

– تأكيده على الخصوصية الوطنية العراقية ورفضه العموميات القومية العروبية حيث يرد علي الوردي على الذي أنكروا الواقع الوطني وانتقدوا كتاباته عن العراق وليس الوطن العربي ككل قائلا: «إني أخالفهم في هذا الرأي مخالفة كبيرة أود أن اسألهم هنا : كيف يمكن دراسة المجتمع الكبير من غير دراسة الأجزاء الصغيرة منه. **»** (سليم مطر، 1999)

– من خلال مجمل كتاباته، يمكن القول أن الوردي مثقف حداثي لكنه غير يساري، بل هو أقرب إلى التيار الليبرالي بمعناه الأمريكي تقريبا، بحكم دراسته لعلم الاجتماع في أمريكا، وهو يدعو بصراحة إلى التمثل بالنموذج الحضاري والاجتماعي الغربي من ناحية الإيمان بالعقلانية العلمية وتقديس التطور العصري والتحديث، لقد بين الوردي بوضوح في كتابه(مهزلة العقل البشري) أنه من الناحية الفكرية الفلسفية أقرب إلى المدرسة المتشككة المنفتحة التي ترفض الجزم واليقين المطلق على الطريقتين الدينية والمادية الماركسية.

ـ صحيح أنه يدعو إلى الثورة في الثقافة والفكر كما عبر بصراحة في كتابيه (وعاظ السلاطين ومهزلة العقل البشري)، إلا أنه يرفض بشدة كل الميول الثورية في السياسة، خصوصا فيما يتعلق بالشعب العراقي، حيث أنه يعتبر كل الانتفاضات والثورات العراقية (مثل ثورة العشرين) ردود فعل قبائلية وأمزجة فردية.

ـ أنه يدعو بصراحة إلى النظام الديمقراطي، وله كلام أقرب إلى التنبؤ حيث قال في كاتبه«مهزلة العقل البشري »، أي في عام 1965 :« إن هذه فرصة يجب علينا انتهازها، فالعراق الآن يقف على مفترق الطريق، وهذا هو أوان البدء بتحقيق النظام الديمقراطي فيه، فلو فلتت هذه الفرصة من أيدينا لضاعت منا أمدا طويلا »(سليم مطر، 1999)

ـ تفرد العالم الدكتور الوردي بالدخول بتحليلات علمية عن طبيعة نشأة وتركيب المجتمع العراقي الحديث خصوصا بعد عهد المماليك وفيضانات دجلة والفرات وموجات مراض الطاعون التي أما فتكت بأعداد هائلة من المواطنين الذين كانوا يقطنون الولايات العراقية على عهد العثمانيين أو أدت إلى هجرة أعداد غفيرة من مواطني الشعب العراقي إلى الولايات والأمارات العثمانية شرق نجد والخليج أو إلى الشام «سوريا ولبنان والأردن وفلسطين أو إلى مصر ». ولازالت الكثير من العوائل من الأصول العراقية محافظة على ألقابها العراقية. (سليم مطر، 1999)

7- علي الوردي وابن خلدون

يعتبر الكثير من العلماء وعلى رأسهم ساطع الحصري أن محور نظرية ابن خلدون أو محور فكره هو الدولة والعصبية، أما علي الوردي فيشير إلى أن المقارنة بين نظرية ابن خلدون في علم الاجتماع وبين النظريات الاجتماعية الحديثة تبين لنا فروقا لها أهمية ليست بسطة فإذا كان محور نظرية ابن خلدون هو الصراع بين البداوة والحضارة فإن النظريات الاجتماعية الحديثة تركز اهتمامها على دراسة المجتمعات الثابتة والمجتمعات المتحركة بمعنى أخر فإن دراسة موضوع التغير الاجتماعي الذي هو قانون حتمي وما يفرزه من مشاكل اجتماعية، كما أن المجتمع البدوي الذي ساد في الشرق عموما يختلف في كثير من خصائصه عن المجتمع السكوني في أوروبا من حيث نمط العيش وأسلوب الإنتاج ونظام القيم والسلطة لأن البداوة تتلاءم مع حياة الصحراء وقسوتها وخشونتها.

كما أشار الوردي فإن ميزة ابن خلدون أنه قارن بين البداوة والحضارة وحلل نوعية الصراع الاجتماعي وأشكاله لذلك فإن مقدمة ابن خلدون هي أفضل مرجع لدراسة المجتمع العربي عموما، ومجتمع الخليج العربي خصوصا لأنها انبثقت من طبيعة هذا المجتمع، مثلما انبثقت النظريات الاجتماعية في أوروبا من طبيعة المجتمع الذي نشأت فيه (حميد المطبعي، 2010: 157).

8- الحداثة والفكر الاستشراقي عند علي الوردي

رغم التناقضات والصراعات بين التيارات السياسية الثقافية العراقية المعروفة: الليبرالية والماركسية والقومية، إلا أن جميع هذه التيارات تجتمع على قاسم مشترك واحد اسمه (الحداثة) بمعنى النقد الشديد للميراث الديني والشعبي باعتباره (ظلاميا وعثمانيا ومتخلفا) وتقديس الثورة العلمية والتكنولوجية وعموم الثقافة الأوربية بتياراتها المختلفة، مع الاختلاف في التفاصيل والمسميات والأساليب ودرجة النقد والرفض، لقد شكلت هذه التيارات الثلاثة : (الليبرالية والماركسية والقومية) بمجموعها (ثقافة الحداثة)، التي قادت الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية في العراق المعاصر منذ أكثر من قرن وحتى والآن.

لهذا فإن دراستنا لفكر علي الوردي ما هي إلا محاولة لدراسة أحد رموز فكر الحداثة، من أجل معرفة دور هذا الفكر في تكوين (العقلية العراقية) المعاصرة وفي صناعة التاريخ الوطني الحديث بمشاريعه وتطوراته المأساوية.

إن الخاصية الأساسية الجامعة لكل تنوعات وتيارات فكر الحداثة، هي «الرؤية الاستشراقية » المستنسخة والمترجمة حرفيا من «الرؤية الغربية » عن الشرق العربي: البدوي المتخلف المتعصب دينيا الذي يميل إلى الروحانيات بحكم طبعه السامي البدوي الصحراوي.

إن تأثير هذه الرؤية وتغلغلها في تلافيف الفكر من القوة بحيث أن المثقف يمارسها من دون أن ينتبه لوجودها ولا يشعر بتناقضها مع مبادئه (الوطنية الليبرالية أو القومية أو الأممية) المعلنة، من الطريف مثلا، أن ترى علي الوردي يأسف لأن المجتمع العراقي لا يبتدع ثقافته بل يستوردها «إنه الآن لا يبتدع المذاهب المستحدثة كما كان يفعل أسلافه، بل هو يستوردها من الخارج ويتنازع عليها، والظاهر أن رقي الحضارة الحديثة التي جاءت إليه جعلت منه "مصبا" للمذاهب، لا "منبعا" لها ». لكن إدراك هذه الحقيقة لم يمنع الوردي نفسه من ارتكاب نفس الخطيئة بتبني الرؤية الغربية الاستشراقية في دراسة المجتمع العراقي.

إن حجر الزاوية والأساس الذي تستند عليه هذه الرؤية الاستشراقية الغربية في دراسة وتقييم المجتمعات العربية، هي الفكرة (العرقية القبائلية) القائلة بأن هذه المجتمعات هي سليلة أصيلة للقبائل العربية البدوية، أي خلق القطيعة التامة بين هذه المجتمعات ووجودها الجغرافي الأرضي الوطني وربطها بحقيقة عرقية أزلية لا تؤثر فيها كل تطورات التاريخ ومتغيرات الجغرافيا، بالاعتماد على أساس (البداوة) هذا تم تفسير وشرح كل مكونات الفكر والعادات والسلوك والإبداع وكل الميراث الحضاري والعقلي، إن الخطوة الكبرى التي تم انجازها في أوائل هذا القرن من أجل تعزيز هذه الرؤية، تمثلت بإعادة كتابة تاريخ الحضارة العربية الإسلامية على أساس عرقي قومي طائفي اعتبر أن المصدر العرب الوحيد لهذه الحضارة هو القرآن والميراث البدوي الجاهلي، أما المصادر الأساسية لهذه الحضارة فهي يونانية وفارسية وهندية، وليس بالصدفة أن هذه المصادر كلها، باعتبار العقل الشرقي(السامي الحامي) بدوي روحاني بطبعه غير قادر على تقبل المنطق العلمي والفلسفي، وهذه الفكرة نجدها مكررة في الأغلبية الساحقة من الكتب المؤلفة من قبل المستشرقين أو العرب أنفسهم، بناء على هذه الرؤية القومية العرقية تم الإلغاء التام لكل الميراث الحضاري للمجتمعات الأصلية في العراق والشام ومصر وشمال إفريقيا، باعتبار هذه

المجتمعات عربية قحة، وبالتالي هي منقطعة بدنيا وحضاريا، أي عرقيا وقبائليا، عن كل ميراثاتها السابقة للإسلام ولا تحمل غير الميراث البدوي لقد نجح المستشرقون الغربيون ومؤسساتهم التبشيرية والجامعية، ولغايات تاريخية ودينية واستعمارية، بفرض هذه الرؤية الاستشراقية التوراتية العنصرية على النخب المثقفة العربية (والعراقية طبعا)، بحيث اتفقت عليها جميع التيارات، كل حسب طريقته وأيدلوجيته، الليبراليون والماركسيون اعتبروا البداوة سبب تعصبنا وتخلفنا وموقفنا المعادي للتنظيم وللانفتاح على الحضارة الغربية بنوعيها الرأسمالي أو الاشتراكي، بل إن الماركسيون ابتدعوا تبريرا تاريخيا لهذه العنصرية من خلال مفهوم الاستبداد الآسيوي (باعتبار النظام الاستبدادي خاصية آسيوية بينما الديمقراطية خاصية أوربية (يونانية رومانية)، أما العروبيون فأنهم اعتبروا البداوة دليلا ساطعا على أصالتنا القومية ونقاوة دمائنا العربية، وأن الابتعاد عنها هو ابتعاد عن العروبة الحقة، على حد تعبير أحد كبار مفكري العروبة (زكي الارزوسي) لكن مع هذا التقديس للبداوة من قبل العروبيين فإن تقديسهم للحداثة الغربية جعلهم في النهاية يتفقون مع التيارين الليبرالي والماركسي باعتبار البداوة سبب تخلفنا.

باسم رفض ميراث البداوة والعشائرية والتخلف، وتقديس ثقافة العلم والتحديث (بشكليه الرأسمالي أو الاشتراكي)، اتفقت تيارات الحداثة بمختلف مسمياتها وميولها، على احتقار ثقافة المجتمع والسخرية من تقاليده ومحاربة أسسه الروحية والدينية وتراثه الوطني والمحلي، إن أي دارس لفكر الحداثة في بلداننا يتوصل إلى نتيجة مفادها أن هذا الفكر تمكن من اختصار كل تاريخ مجتمعاتنا وتطوراتها و اشكالياتها بثنائية واحدة وحيدة : (صراع الحضارة والبداوة، أو التقدم والتخلف)، مع اختلافات سياسية بين هذه التيارات حول الاشتراكية والرأسمالية والثورة الصناعية والعلمية وعن السوريالية والبنوية والدادئية، إلى آخره من التفاصيل والمسميات، مع الاتفاق التام حول المشروع التحديثي الغربي والرؤية الاستشراقية لمجتمعاتنا. (سليم مطر، 1999)

9- نحو علم اجتماع عربي

يعتقد علي الوردي أن علم الاجتماع الحديث الذي وضع أسسه (اوغست كونت) في منتصف القرن التاسع عشر يختلف عن علم الاجتماع الخلدوني (علم العمران) الذي وضع أسسه ابن خلدون، في بداية القرن الرابع عشر ولم يقصد الوردي بذلك أن العلمين مختلفين من حيث

المنطق أو منهج البحث، وإنما قصد إنهما استمدا مفاهيمهما من تراثين اجتماعيين مختلفين ولهذا جاءت النتائج متباينة، على الرغم من خضوعهما معا للمنطق الوضعي الاستقرائي.

وإذا كان علم الاجتماع الخلدوني ظهر في نهاية فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية وبعد أن تراكمت الخبر العلمية والثقافية جيلا بعد جيل، فقد أتيحت الفرصة لابن خلدون لان يلقح تلك المعارف والأفكار وان ينتج علما اجتماعيا جديدا أطلق عليه العمران البشري والاجتماع الإنساني، ولذلك يعتبر المؤسس الأول لعلم الاجتماع الذي انبثق من الظروف والشروط الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي مر بها العالم الإسلامي في العصر الوسيط.

لكن المشكلة كما يقول الوردي في علم الاجتماع الخلدوني هي أن هذا العلم الجديد لم يجد من يعرف قيمته ويقدر أهميته بالرغم من ابن خلدون نفسه كان يأمل أن يجد من يهتم بعلمه ويوسعه ويصلح أخطاؤه على يد العلماء من بعده، غير أن أمنيته لم تتحقق وبقيت المقدمة دون شرح وتفسير وتعليق طيلة قرون عديدة، ودخلت عالم النسيان لأن الحضارة العربية الإسلامية كما سبق وأن ذكرنا قد دخلت في عصر الظلام الدامس، ولم يعد هناك من يهتم بدراسة الواقع الاجتماعي. (إبراهيم الحيدري، 2006 : 106، 107)

10- أهم الانتقادات الموجهة لفكر علي الوردي

وجهت للوردي الانتقادات التالية:

- اتهم علي الوردي بعدم اهتمامه بشكل كاف بالبعد التاريخي في دراسة المجتمع العراقي وعدم اهتمامه بدراسة الحضارات القديمة لبلاد الرافدين والتي تركت تأثيرا لا يزال حيا إلى يوما هذا.
- لقد غالى الوردي كثيرا في تأثير القيم والعادات والأعراف البدوية، مع أن هناك حواضر قديمة لم تتأثر كثيرا بالقيم البدوية، كسكان الأهوار والاشوريين.
- يرى البعض أن الوردي قد أظهر عيوب المجتمع العراقي وترك محاسنه ومفاخره وكذلك فعل مع البدو والبداوة في الوقت الذي تجنب فيه نقد الحكومة والسياسة ولم يتطرق للتحليل الطبقي للمجتمع العراقي.
- اتهمه آخرين بأنه نال من القيم الإسلامية عندما هاجم رجال الدين ووعاظ السلاطين وانتقد الطقوس والشعائر الدينية، حتى أن بعضهم اتهمه بالكفر والزندقة.

انتقده أساتذة اللغة العربية على دعوته لإصلاح اللغة العربية وتسهيل قواعدها، كما أتهم بالماسونية والعمالة لدعوته إلى مظاهر الحضارة والمدنية الغربية وقيمها وسلوك أفرادها (إبراهيم الحيدري: 2006 : 271، 272)

11- رد الوردي على منتقديه

يقول الوردي أن القراء قد اختلفوا في تقييم وقراءة كتبه فمنهم من يعتبره ثوري حيث أن أفكاره تمهيد لثورة ومنهم من جعلها على النقيض من ذلك إذ هي في نظره أداة لتشويش الأذهان ونشر الأفكار المدسوسة، ثم يقول : «بل اترك أمري وأمرهم للتاريخ ليحكم فيهما بما يشاء وعلى كل حال لست أدعي بأني كنت في العهد البائد من الكتاب المكافحين المناضلين فهذه الصفة لا استطيع أن أنسبها لنفسي. » (إبراهيم الحيدري، 2006 : 271)

أما فيما يتعلق بالنزعة الشعبوية في كتاباته فيعترف الوردي بأن هذه النزعة كانت «دافعا ذاتيا للكتابة وأنه كالملايين من أبناء شعبه عانى من المذلة والحرمان وأنه كاتب اجتماعي سلك طريق النقد الشديد للكثير من المعتقدات والعادات وكان يعرف من البداية أن الناس يتعصبون لمعتقداتهم الموروثة وهم لا يحبون من ينتقدها ولهذا فهم ينسبون إليه التهم الشنعاء » (إبراهيم الحيدري، 2006 : 271)

ولعل أبرز الكتب التي طالتها انتقادات كبيرة هي كتاب وعاظ السلاطين الذي دفع بالكثير من الكتاب بالرد عليه حيث بلغت عدد الكتب الصادرة في نقد هذا الكتاب أكثر من خمسين كتابا، بالإضافة إلى تلقيه تهديدات كثيرة بالقتل وتكفيره.

كما يرد الوردي أيضا على منتقديه الذين يذهبون إلى أن بعض أفكاره مبنية على مجموعة من المواقف التي حدثت معه، حيث يقول أنه يرفض العلم الذي يأتي فقد من الكتب أو ما يطلق عليه

- خاتمة:

لقد أردنا من خلال هذه الدراسة التعريف بالمفكر الاجتماعي العربي علي الوردي، باعتباره احد أبرز علماء الاجتماع العرب، حيث كان للوردي إسهامات كبيرة في بلورة علم اجتماع عربي ينطلق من المشكلات الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع العربي للبحث عن أسبابها للوصول إلى حلول لها،حيث اعتمد الوردي على أسلوب التحليل والتعمق في دراسة الظواهر الاجتماعية وذلك من خلال البحث عن أسباب الظاهرة وتاريخه وكيف تطورت مع الوقت وهو الأمر الذي جعل

الكثير من العلماء يصنفونه كمؤرخ أكثر منه كعالم اجتماع، حيث استطاع الوردي من خلال مؤلفاته وأبحاثه أن يثير ضجة ليست بالقليلة وذلك لاعتماده أسلوب نقدي لاذع في بعض الأحيان أراد من خلاله الثورة على كل ما هو مألوف سواء من ناحية الأسلوب أو اللغة أو الأفكار، أو زاوية النظر إلى الأمور ليخلق لنفسه خطا استطاع من خلاله التأثير في الكثير من القراء و ساهم في بروز الكثير من العلماء المتأثرين بمنهجه وأسلوبه وأفكاره وثوريته في الكتابة ولعل أبرزهم كما أشرت سابقا علي شريعتي، حيث وجهت للوردي الكثير من الانتقادات وعلى رأسها عدم انتقاده للحكومات بشكل مباشر حيث اتهم بالجبن، إلا أن المتمعن جيدا في كتب الوردي يجد أن أفكاره لا تدعو إلى إسقاط أنظمة بشكل مباشر بل تصنع عقول ثورية تنظر للواقع بشكل نقدي تحليلي، وهو ما حصل مع علي شريعتي، والكثير من المفكرين في العصر الحديث الذين يتبعون فكر الحداثة.

الهوامش

1- إبراهيم الحيدري: علي الوردي شخصيته، منهجه وأفكاره الاجتماعية، منشورات الجمل، ط1، بغداد، العراق. 2006

2- حميد المطبعي:علي الوردي يدافع عن نفسه، بط، دار الكتب العراقية، بغداد، العراق. 2010

3- ـ علي الوردي: دراسة في سوسيولوجيا الإسلام، ط1، الوراق للنشر والتوزيع، بغداد، العراق، الفرات للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان. 2013

4 علي الوردي: لمحات اجتماعية عن تاريخ العراق الحديث، الجزء الأول، الأحداث التاريخية في بداية العهد العثماني حتى منتصف القرن التاسع عشر، مطبعة أمير – قم، ط1، إيران. 1969

5 - سليم مطر(: علي الوردي وعنصريته ضد المجتمع العراقي، جنيف، سويسرا، 1999. http://www.salim.mesopot.com، يوم : 2018/07/15، سا: 15:00

6- http://www.salim.mesopot.com، يوم: 2016/07/22، سا: 10:53.

7- https://fakkerfree.wordpress.com، يوم : 2016/07/19، سا: 12:00.